الفصل الخامس عشر

القدس - القلب النابض للعرب والمسلمين والصراع العربي والدولي للمحافظة على هويتها العربية

الفصل الخامس عشر

القدس- القلب النابض للعرب والمسلمين والصراع العربي والدولي للمحافظة علي هويتها العربية

القدس – بيت المقدس قلب الإسلام النابض، والمظهر الدائم لعز الأمة العربية، إذا ذل العرب ذلت القدس، وإذا إرتفع شأنهم إرتفع شأنها، هكذا كان الحال منذ أن دخلتها جيوش الفتح الإسلامى فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ولم يرض بطريرك القدس– الأنبا سفرونيوس– أن يسلم مفاتيح المدينة إلا للخليفة عمر نفسه، فحضر عمر من المدينة وتسلم المفاتيح من البطريك بعدما أعطى لأهلها الأمان والحماية فى كنف المسلمين، متمتعين بعدل المسلمين بعد أن زال عنهم كابوس الإحتلال البيزنطى، وكتب عمر رضى الله عنه فى كنيسة القيامة العهدة العمرية المشهورة التى أعطت لسكان المدينة حرياتهم كاملة، حرية العبادة فى الكنائس والصوامع وتعهد الدولة بصيانة جميع دور العبادة فى المدينة، وحفظ كرامة أهلها وإشاعة العدل والطمأنينة بينهم كما تعهدت العهدة العمرية بالدفاع عن المدينة ضد الأعداء وعدم السماح بإقامة اليهود فيها كما طالب البطريك بذلك، وعند ماحضرت الصلاة وأمير المؤمنين جالس فى كنيسة القيامة مع البطريك، إستأذن أمير المؤمنين البطريك فى الخروج للصلاة خارج الكنيسة، ولما سأله البطريك لماذا لا تصلى هنا داخل الكنيسة؟ أجاب عمر بأنه يخشى أن يأتى الناس من بعده ويقولون هنا صلى عمر وينتزعون الكنيسة من أيدى النصارى ويحولونها إلى مسجد، فانظر إلى عدل أمير المؤمنين عمر وبعد نظره وعدله ورحمته وهو على رأس الجيش الفاتح.

وعاشت بيت المقدس طوال عهود الإسلام وهى محترمة مبجلة مقدسة، فهى مسرى النبى محمد صلى الله عليه وسلم، والتى صلى فيها إماما لجميع الرسل وعلى أرضها المباركة التى باركها الله فى القرآن الكريم وكانت القبلة الأولى للمسلمين قبل تحويل القبلة الى المسجد

الحرام بمكة، وساهم جميع خلفاء المسلمين وحكامهم بعد ذلك فى تعمير المدينة وحرصوا على رخائها وسعادة سكانها من مسلمين ومسيحيين دون تفرقة.

ولما إختلفت الطوائف المسيحية فى عهد من العهود على أحقية أى منهم فى سدانة كنيسة القيامة وحمل مفاتحها وخدمتها وتيسير إقامة الصلوات فيها، إتفقوا على إعطاء هذا الحق لأفراد أسرة مسلمة، ومازالت هذه الأسرة المسلمة تحتفظ بهذا الحق إلى اليوم.

ولم تتعرض المدينة أبدا للنكبات والكوارث إلا فى الفترات التى أغتصبت فيها من أيدى المسلمين فى أيام الغزو الصليبى لفلسطين، وفى الغزوة الصهيونية الحالية.

ويعكس ما يكتبه المفكرون والعلماء والكتاب عن القدس اليوم مدى القلق الذى يشعر به عدد كبير من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية على مصير المدينة، وخوفهم من طمس الإسرائيليين لهويتها العربية وتهويدها، ونعرض هنا لما صدر من كتابات بهذا الخصوص فى المجال العالمى، ونبدأها بملخص لكتاب صدر فى باريس باللغة الفرنسية عن القدس، اشترك فى تأليفه عدد كبير من الكتاب والساسة وعنوان هذا الكتاب الذى صدر فى عام ٢٠٠١ وباللغة الفرنسية هو J'ERUSALEM LE SACRE ET LE POLOTLQUE

١- «القدس، بين القداسة والسياسة»

وقام بترجمته وتلخيصه د. أحمد يوسف، ونشر حلقة منه فى جريدة الأهرام القاهرية فى باب كتاب جديد، وجاء فى هذه الحلقة ما يلى:-

فى ترجمة الأحداث المتسارعة فى الشرق الأوسط وفى لهيب النار المستعرة حول الأماكن المقدسة، عاد موضوع مدينة القدس إلى واجهة الأحداث السياسية بعد أن كان هو العقبة الأولى التى أودت بالمفاوضات بين العرب وإسرائيل، وإذا كانت المدن فى الشرق الأوسط تصنع التاريخ على مر العصور، فإن مدينة القدس صنعتها أساطير التاريخ وحكايات الماضى ومعجزات الأنبياء وأنهار الدم التى خضبت المدينة بفعل الفتوحات والغزوات وجعلت منها أرضا مقدسة لعقائد مختلفة وأديان سماوية ورهبان ونساك من كل حدب وصوب.

وكتاب القدس بين السياسة والقداسة يعالج كل هذه الجوانب السابقة وهو وإن كان عنوانه الحقيقى بالفرنسية «القدس، المقدس والسياسة»، فإن معنى القداسة فى عمق الفلسفة الدينية هو المقصود فى هذا الكتاب، وأن السياسة بمعناها العملى ووجهها الدبلوماسى وشكلها العسكرى هى المعروضة على صفحات هذا الكتاب المثير، والكتاب موقع بثلاثة عشر إمضاء لثلاثة عشر كاتبا ومفكرا وسياسيا وعالم إجتماع عربا وفرنسيين، وجميع أعمالها جمعها ورتبها الكاتب السورى الكبير فاروق مردم بك مدير نشر دار «أكت سيد» التى نشرت الكتاب بالتعاون مع مجلس السفراء العرب بباريس والسياسى صنبر رئيس تحرير مجلة «دراسات فلسطينية» التى تصدر فى باريس.

والفصل الأول من الكتاب بقلم الشاعر اللبنانى دكتور صلاح ستيتة، وعنوان الفصل يوحى بما يحمله من معان عميقة قد نسيها الناس فى زحمة لغة السياسة وفى تسارع الأحداث والسباق نحو تحليلها، فالعنوان هو «القدس بين الحلم والعشية» ويدخل صلاح ستيتة مباشرة إلى لغة القرآن الكريم والقدس، وكيف أن مكة المكرمة يقابلها القدس الشريف، فالمكرمة هنا والشرف هناك، صفات روحية إسلامية بحتة تحمل من الشعر ما يرق له قلب المسلم فور سماع إسم هذه المدينة أو تلك، ويقول الشاعر إن الإسلام إستطاع أن يحتوى المدينة الكبيرة بتراثها الحضارى الضخم وتراثها الإبراهيمى نسبة إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو ما يعنى أنها مدينة لكل الأديان السماوية.

إلا أن الإسلام وقد دخل المدينة فاتحا مرتين الاولى عام ٦٣٦ م فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، والثانى فى عهد صلاح الدين الأيوبى عام ١١٨٧م وبين هذين التاريخين تحقق حلم الإسلام، وأصبحت مدينة الإسراء والمعراج مدينة مقدسة، بمعنى أنها تحمل فى شوارعها وحواريها وفى أبنيتها روح دين سماوى يعترف بمريم وعيسى عليهما السلام، وبموسى عليه السلام، ويرى صلاح ستيته أن الإسلام والمسلم لا يصح أن يكون مسلما إلا إذا آمن بعيسى وموسى والأنبياء جميعا، وكلهم رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إسرائه ومعراجه.

أصبحت القدس بدءاً من هذه اللحظة مدينة السلام وقبلته الأولى ولها موقع القلب فى قلب كل مسلم على وجه الأرض.

٢ - جغرافي مسلم ومدينته في عام ١٠٠٠:-

وهذا عنوان لكتاب من تأليف المستشرق الفرنسى أندريه ميكيل عن أبا الجغرافيين العرب المقدسى، وهو الرحالة العربى الذى أعطى عن المدينة أول معالم وتضاريس فى كتاب.

ويقول إن المقدسى صنف المدينة كإحدى أهم المدن فى الشرق فى العصور الوسطى مثلها مثل القاهرة والإسكندرية ودمشق وبغداد.

وبعد الشعر والجغرافيا يبدأ الكتاب فصوله بمقال عن القدس والأماكن المقدسة فى التاريخ بقلم الأب يواكيم مبارك أحد أشهر المتخصصين فى تاريخ القدس وتلميذ العلامة المستشرق الكبير لويس ماسينيون. ويستعرض يواكيم مبارك تاريخ القدس فى العصور السحيقة ويقول ان أورشليم كلمة عربية حيث أن أصل كلمة شالم هو سالم بالعربية أى مدينة السلام وأن المصريين القدماء هم أول من سجل نصا كتابيا عن المدينة فى التاريخ وذلك فى نقوش جداريات تل العمارنة التى تعود الى عام ١٢٧٠ ق.م، والتى يطلب فيها حاكم المدينة من الفرعون إخناتون الحماية والمساعدة.

ويقول إن المصريين القدماء إهتموا بالمدينة، وكان أهم هؤلاء الفرعون أنخاو الذى هزم يوشع ملك القدس فى معركة مجدوا الخالدة عام ٦٠٨ ق. م. ويقول يواكيم مبارك أنه بعد زمن السبى البابلى لم يعد لليهود أى أثر بالمدينة وأنه كان على اليهود الإنتظار لحين مجيىء حكام مصريين الذين سيسمحون له بالإقامة والعيش فى المدينة باسم سماحة الإسلام خصوصا صلاح الدين الأيوبى والسلطان قايتباى، وحول الكوارث التى جلبتها المسيحية السياسية وليست الروحية يقول يواكيم إن كارثة إجتياح القدس فى ١٥ يوليو عام ١٠٩٩ م من قبل الحملة الصليبية الأولى، وطرد الفاطميين المصريين منها كانت كارثة كبرى حيث أن الصليبيين أعملوا القتل والفتك بكل سكان المدينة إلى حد أن السائر فى الطريق كان يخوض بقدميه فى بحار من الدم والأشلاء.

ويقول يواكيم مبارك أن الحوار الإسلامى المسيحى حول القدس قد إستبعد من طريقه الجانب اليهودى وهو ما يعنى أن المدينة ترتبط روحيا بالإسلام والمسيحية وهو ما يثير عند

اليهود الكثير من الحنق لأن هذا يناقض الجهد الكبير لفلاسفة الفقه اليهودى، وعلى وجه الخصوص موسى بن ميمون الذى كان يطالب بوضعية روحية خاصة لليهودى المتدين على المدينة فإنه كان يطالب أيضا بأن يعترف اليهود واليهودية بمكانة المدينة فى الإسلام.

٣ - كتاب إسرائيلي أسود حول القدس

فى مقال للدكتور أحمد يوسف القرعى عن القدس فى جريدة الأهرام المصرية جعل عنوانه العنوان المذكور، وبدأه بالقول بأن ثمة فصل آخر من فصول الكتاب الأسود الإسرائيلى بشأن القدس وهو الكتاب المقترح إعداده ونشره موثقا بالحقائق الدامغة وشهادة شهود الرأى العام العالمى بمختلف اللغات.

وفصل اليوم يعرض وقائع تغيير الطابع العربى التاريخى والحضارى والدينى للقدس لإستكمال عملية تهويد المدينة برمتها كأمر واقع، وهو المخطط الذى تحترف إسرائيل إستخدامه منذ قيامها بصفة عامة منذ إحتلالها للقدس العربية عام ١٩٤٩ والقدس الشرقية عام ١٩٦٧ بصفة خاصة، حيث بدأت ممارسات إسرائيل بهدم الأحياء والمبانى الأثرية العربية ونهب وإختلاس الممتلكات الثقافية وسرقة وثقائق الأوقاف الإسلامية، وحفر الأنفاق التى تركت مؤثراتها على أساسات الحرم الشريف والمقدسات الإسلامية، وكانت الأمم المتحدة قد حذرت إسرائيل مبكرا (بقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة من مخالفة قواعد القانون الدولى الإنسانى بإعتبار إسرائيل سلطة إحتلال وطالبتها بالحفاظ على الأماكن المقدسة فى القدس وآثارها التاريخية وطابعها العربى.

ومن منطلق رسالتها الحضارية والثقافية والإنسانية بادرت منظمة اليونسكو بتأكيد ما جاء فى القرارات الدولية نظرا لما لهذه الأماكن والممتلكات والآثار من أهمية فنية وتاريخية ودينية، ووجهت اليونسكو نداء دوليا عاجلا يطالب إسرائيل بأن تحافظ بكل دقة على جميع المواقع والمبانى وسائر الممتلكات الثقافية فى القدس وأن تكف إسرائيل عن أى حفريات للتنقيب عن آثار وعن نقل ملكية هذه الممتلكات أو تغيير معالمها أو طابعها الثقافى والدينى. وفى قرارات لاحقة أكدت اليونسكو على نحو مضطرد ضرورة حماية التراث الثقافى والتاريخى والدينى للمدينة بكاملها باعتبارها جزءاً من التراث المشترك للإنسانية، وأدانت

المنظمة أيضا الحفريات التى تجريها إسرائيل تنقيبا عن الآثار وسائر إجراءاتها الرامية الى تغيير الشكل التاريخى والثقافى العام للقدس مخالفة ذلك كله لأهداف ومبادىء ودستور اليونسكو وإتفاقية ١٩٥٤ لحماية الممتلكات الثقافية فى حالة وقوع إحتلال عسكرى وهى الإتفاقية التى تحظر على سلطات الإحتلال أى شكل من أشكال السرقة أو النهب أو الإختلاس للممتلكات الثقافية أى أعمال تخريبية موجهة ضدها. واكتسبت أعمال اليونسكو فى هذا الشأن أهمية متزايدة بإيفاد ممثل شخصى للمدير العام لليونسكو إلى القدس لتقصى الحقائق وبشكل دورى وتقديم تقرير عن حالة التراث الثقافى والدينى وآثار عملية التنقيب الإسرائيلى وهدم المبانى وبناء المستوطنات على هذا التراث والإجراءات اللازمة لحفظه وتجديده.

وعندما إستشعرت اليونسكو ما سوف يجرى داخل القدس بعد إعلان الكنيست توحيد القدس عام ١٩٨٠ وإتخاذها عاصمة لإسرائيل، قامت اليونسكو بإدراج القدس الشرقية وأسوارها فى قائمة التراث العالمى عام ١٩٨١، وفى قائمة التراث العالمى المعرض للخطر عام ١٩٨٢ وذلك فى سياق إتفاقية ١٩٧٢ بشأن حماية التراث الثقافى والطبيعى فى العالم.

وبموجب هذه الإتفاقية وجهت اليونسكو منذ عام ١٩٨٧ نداء رسميا من أجل القيام بصفة خاصة بحماية التراث الإسلامى الثقافى والدينى التابع للأوقاف الاسلامية وشرعت المنظمة فى السنوات الأخيرة فى دراسة حصر الممتلكات الثقافية وتحديد أولوية مشروعات صيانتها، وشكلت مجموعات من الخبراء الدوليين بهدف متابعة حالة آثار بعينها داخل القدس إسلامية ومسيحية وتقديم توصيات من أجل المحافظة عليها وترميمها.

وبعد إنطلاق عملية التسوية السلمية فى مدريد عام ١٩٩١، واصلت اليونسكو أداء رسالتها فى صون تراث القدس فى إنتظار نتائج مفاوضات السلام وتحديد وضع المدينة مستقبلا، وفى مواجهة إجراءات إسرائيل لإقامة نفق القدس، لم تتردد اليونسكو فى إعلان خطورة هذا فى وثيقة رسمية صدرت عن المجلس التنفيذى للمنظمة مؤكدة أن ثبات أساسات الحرم الشريف مهددة بالخطر بسبب إستخدام مواد كيماوية فى حفر النفق عبر الكتلة الصخرية التى تقوم عليها تلك المبانى مما قد يهدد بصورة خطيرة إستقرارها وثباتها نظرا لما تتسم به الكتلة الصخرية من طبيعة مساوية واضحة.

وفى مواجهة تلك الإنتهاكات، لم يتردد فيدريكو مايور المدير العام السابق لليونسكو فى أن يقول كلمة حق يوم ٢٦ سبتمبر عام ١٩٩٦ يوم إفتتاح نفق القدس، حيث أصدر بيانا قصيرا ولكنه جرىء لأنه يمثل ضمير الأسرة الدولية ويترجم رسالة اليونسكو الإنسانية فى نشر ثقافة السلام والتسامح والوئام فى العالم، حيث طالب مايور السلطات الاسرائيلية بكل حزم بإلغاء النفق الذى إفتتحته آنذاك كممر للسياح بالقرب من المسجد الأقصى المبارك والذى أدى إلى تفجير أحداث دموية فى المدينة المقدسة وباقى المدن الفلسطينية، وإلى سقوط عشرات القتلى والجرحى هناك.

وجاء فى بيان مايور إتهام واضح وصريح للسلطات الإسرائيلية المحتلة مؤكدا أن تفجر الأحداث جاء نتيجة لقرار هذه السلطات فى شق النفق، وأن هذا القرار يتنافى وتوصيات نيودلهى سنة ١٩٥٦ التى تحظر إجراء حفريات فى الأراضى المحتلة، وكانت إسرائيل نفسها قد وقعت حينها على نصوص هذه التوصيات، ودعا مايور الحكومة الإسرائيلية إلى أن تقوم بإلغاء مشروعها هذا وإغلاق النفق.

وظلت اليونسكو من ذلك الوقت تراقب عن كثب كل ما يجرى داخل المدينة المقدسة ولم تتردد فى تقصى الحقائق وإصدار القرارات القوية والفورية التى تشجب ممارسات إسرائيل وتقديم العون المادى للإسهام فى عمليات الترميم وحفظ الممتلكات الثقافية وذلك بالتعاون مع دائرة الأوقات الاسلامية والهيئات الدينية المسيحية بالمدينة المقدسة برغم مضايقة سلطات الإحتلال لها.

وإستند موقف اليونسكو المشرف تجاه القدس إلى مرجعيات أساسية فى مقدمتها مبادىء وأهداف ميثاق المنظمة وأحكام إتفاقية لاهاى سنة ١٩٥٤ من إتفاقية جنيف الرابعة نسبة ١٩٤٨، وبروتوكولاتها الإضافية وبيان وقرارات مؤتمر علماء الآثار فى نيودلهى عام ١٩٥٦ والإتفاقية الخاصة بحماية التراث الثقافى والطبيعى فى العالم سنة ١٩٧٢.

وفضلا عن إلتزام اليونسكو بمثل تلك المرجعيات ذات الصلة بنشاطها الثقافى فإن المنظمة قد إلتزمت أيضا بمبادىء السلوك الدولى التى تحظر على السلطات القائمة بالإحتلال إقتراف ما من شأنه أن يشكل تدخلا فى الحياة العادية والعامة للسكان المدنيين الخاضعين

للإحتلال، كما تحظر الإعتداء على حرية العبادة فى الأماكن المقدسة والتدخل فى هذه الحرية.

ولاشك أن ملفات اليونسكو تمثل أدلة إتهام موثقة لإنتهاكات إسرائيل فى المدينة المقدسة وفى الوقت نفسه تعد تلك الملفات شهادة دولية موثقة من قبل منظمة عالمية أدانت سلطات الإحتلال الإسرائيلى على ما إقترفته من ممارسات عدوانية تشكل فصلا من الكتاب الإسرائيلى الأسود بشأن القدس.

٤ - إستهانة إسرائيل بالعرب والمسلمين الآن أكثر من أي وقت مضي:-

فى هذا الإطار كتب الأستاذ فهمى هويدى الكاتب والمفكر الإسلامى الكبير مقالا فى جريدة الأهرام المصرية، وكانت إنتفاضة الأقصى حينئذ مازالت فى بدايتها وقد إتسم هذا المقال بالموضوعية وعمق التحليل وصدق الرؤية مما يجعلنى مضطرا الى سرد أهم ما جاء فى ذلك المقال هنا، وكان عنوان هذا المقال «تحذير إلى من يهمه الأمر»، وإليك مجمل ما جاء فيه:-

مذبحة الأقصى خبر فلسطينى قديم، يجرى إستنساخه بين الحين والحين الآخر فى صحف الصباح مع تغيير طفيف لا يتجاوز إسم المكان، ١٥٠ قتيلا، ٧٥٠ جريحا حصاد ومواجهة إنتفاضة الأقصى (يبلغ هذا العدد الآن أكثر من ٨٠٠ قتيل، ١٥ ألف جريح)، لا مفاجأة، فقافلة الشهداء والجرحى تخضب أرض فلسطين بالدم منذ الثلاثينيات، شىء واحد إستجد على المشهد، هو أن وقائعه الدامية تتلاحق تحت رايات السلام وفى أجواء معزوفة ما برحت تردد أن الطرفين القاتل والقتيل أقرب إلى بعضها أكثر من أى وقت مضى (كان ذلك فى نهاية عهد الرئيس كلينتون)، كم يكون عدد الضحايا لو أنهم كانوا أبعد.

ولأن الأمر كذلك، فاحسب أن إنتفاضة الجمعة رسالة مهمة ينبغى أن تقرأ جيدا وبغير إبطاء.

أ – غضبة الجماهير حدثت بعد زيارة شارون لبيت المقدس ومعه قادة الليكود، هذا صحيح ولكنه غير دقيق، ان الانتفاضة وقعت بعد تلك الزيارة البائسة، وغير دقيق لأن

الغضب الفلسطينى متراكم فى الأعماق منذ عدة عقود، ولأن الإسرائيليين لا يكفون عن إذلال الفلسطينيين والإزدراء بهم بعدما أصاب المحيط العربى من إنفراط فى العقد وفتور فى الهمة.

وفى عام ١٩٦٧ بعد ما هزم العرب وإحتل الإسرائيليون كامل تراب القدس إستبدت النشوة ببعض جنود المظلات فرفعوا العلم الإسرائيلى على بيت المقدس، ولكن موشيه دايان الذى كان رئيسا للأركان آنذاك أمر جنوده بإنزال العلم، وهو ما حدث بالفعل، وفى تفسير ذلك قال الذين حضروا الواقعة إن دايان أراد ألا يصدم المشاعر الإسلامية لإدراكه لمدى حساسية الموضوع بالنسبة لملايين المسلمين، ثم إن اليهود لم يكن لهم مطالب آنذاك فى بيت المقدس، وهو ما تجلى فى نقل السلطات الإسرائيلية صلاحيات إدارة الحرم القدسى إلى الأوقاف الإسلامية التى تحملت تلك المسئولية كاملة منذ ذلك الحين. وقتذاك ورغم الهزيمة ورغم أنهم كانوا فى ذروة النصر، خشى دايان من عواقب رفع العلم الاسرائيلى فوق بيت المقدس، وهو ما تغير بالكامل بعد مرور اكثر من ثلاثة عقود، حيث لم يقتصر الإسرائيليون على دخول الحرم القدسى بأحذيتهم وسلاحهم، وإنما أيضا أصبحوا يطالبون ببناء كنيس لهم فوق أرض الحرم بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة. المسلمون والعرب الذين حرص دايان على تجنب إستفزاز مشاعرهم لا يزالون موجودين حتى الآن، بل إنهم إزدادو عددا وثراء، الأمر الذى يدعونا فى محاولة تفسير تفاوت الموقفين السابق والحالى، عما إذا كانوا قد أصبحوا أقل قيمة، حيث عمل لهم دايان حسابا فى مرحلة وأسقطهم باراك وشارون من حسابه فى مرحلة أخرى؟

(ب) فى واشنطن التقى يوسى بلين وزير العدل الإسرائيلى مع مجموعة من اليهود الذين يصنفون ضمن معسكر «أنصار السلام» وهم الذين يضمهم مركز السلام والتعاون الإقتصادى، ولم يكن لقاؤه معهم بوصفه وزيرا فى الحكومة الإسرائيلية، وإنما أيضا باعتباره إحدى ركائز دعاة السلام فى إسرائيل، بهاتين الصفتين تحدث الرجل الى سامعيه فى أمور عدة يهمنا منها ما تعلق بقضيتى القدس واللاجئين.

فيما يخص القدس قال بيلين بوضوح ان الإسرائيليين ليسوا أمام محاكمة، ببساطة لأنهم هم القضاة، وهم الذين سيقررون مصير الملفات العالقة، وهم أيضا لا يعتبرون أن هناك شيئا

ليس قابلا للنقاش أو اللمس، وهم يلتزمون بهذا الموقف فإنهم يدركون جيدا أنهم لا يريدون السلام بأى ثمن، ويعرفون تماما أنهم لا ينبغى أن يرضوا الفلسطينيين، وحسب كلامه فإن كل شيء قابل للحل، حتى مشكلة المسجد الأقصى، لابد أن يعرف الجميع حقنا فى بناء المعبد اليهودى أو الهيكل الى جوار المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

فيما يتعلق باللاجئين قال بيلين انه ينبغى أن يكون حل قضيتهم رمزيا، ورمزيا فقط، وأن يبقى ذلك الحل فى إطار التعويض والتأهيل، وبعد أن اختصر خيارات حل مشكلة خمسة ملايين لاجيء فى هاتين الكلمتين اللتين تعنيان إعطاء اللاجئين حفنة دولارات تعويضا لهم عن الوطن الذى فقدوه والمال والعقار الذى تركوه، ثم إعدادهم للإعتماد على أنفسهم وإكتساب مورد رزق لهم فى الأقطار التى سيتم توطينهم فيها.

أضاف بيلين قائلا: إن على الفلسطينيين أن يفهموا أن عودة اللاجئين هى أكثر الخطوط الحمراء إحمرارا بالنسبة لإسرائيل وأنه ليس هناك أى خلاف فى اسرائيل حول هذا الموضوع، لا صقور ولا حمائم، ولابد لهم أن يعلموا أنه لا يمكن قيام دولة فلسطينية الا بموافقتنا، وأنه لن يكون هناك حل إلا من خلال المفتاح الذى نملكه، بهذه اللهجة المليئة بالصلف والإستكبار تكلم الرجل (الحمامة) قبل أسابيع قليلة فى واشنطن والموقف الذى عبر عنه فى اللقاء مختلف عن الموقف الذى عبر عنه قبل ٥ سنوات على الأقل طبقا لما هو ثابت فى الوثيقة التى أعدت سنة ١٩٩٥ فى شهر أكتوبر أيضا، وهى التى عرفت فيما بعد بوثيقة «بيلين أبو مازن» وتعرضت لمختلف قضايا الحل النهائى، وفيها نص يقول انه فى داخل مدينة القدس يقر الطرفان بأن الجزء الشرقى العربى منها الخاضع للسيادة الفلسطينية سيسمى القدس ويصبح عاصمة للدولة الفلسطينية، وفيما يتعلق بالمدينة القديمة فإن الوثيقة حددت ترتيبات خاصة تتعلق بسيادة الحرم الشريف تحت إدارة الأوقاف الإسلامية فى القدس، وأن إتفاقا مماثلا سوف يتم بالنسبة لكنيسة القيامة، بيلين فى وثيقة ٩٥ يتبنى موقفا مغايرا ويتحدث بلغة مغايرة عن تلك التى يتحدث بها أو يعنيها فى تصريحاته التى أعلنها فى شهر سبتمبر ٢٠٠٠، وهذا التفاوت يستدعى فى تفسيره السؤال الذى طرحناه توا، ويستصحب الإحتمال الذى أوردناه، ذلك الذى يسجل إزدراء الإسرائيليين بالعرب والمسلمين واستخفافهم بهم إلى الإستكبار وسقوط الإعتبار.

(جـ) لا يقف الأمر عند حدود الإزدراء والإستكبار فحسب، إنما تعامل الإسرائيليون مع الفلسطينيين والعرب فى موضوع القدس بالذات بدرجة عالية من الإستغفال أيضا فالقدس فى الخطاب الإسرائيلى ليست شيئا واحدا، إنما ثلاثة أشياء أو قل ثلاثة أقسام:- أولها البلدة القديمة أو الأحياء السكنية الواقعة داخل سور القدس وهى الأحياء الإسلامية والمسيحية واليهودية، أما القسم الثانى فهو بلدية القدس كما رسمتها الدولة الإسرائيلية، والثالث هو القدس الكبرى التى إبتدعها إسحاق رابين ويفترض أن تضم الى جانب بلدية القدس جميع المستعمرات التى تمت إقامتها حول المدينة المقدسة لغرض سنشير إليه توا.

بلدة القدس القديمة الواقعة داخل الأسوار مساحتها أقل من كيلو متر مربع، ومقسمة إلى أربعة أحياء، أكبرها الحى الإسلامى ٣٤٢٠٠ وحدة سكنية، ويقطنه ٣١ ألف نسمة، وفيه الحرم القدسى الشريف ومعه الحى المسيحى ٤٧٤٠ وحدة سكنية يعيش فيها ٤٦٠٠ نسمة وفيه ٤٠ ديرا، ثم الحى اليهودى ٥٤٨٠ وحدة سكنية يقطنها ٢٤٠٠ شخص، وأخيرا الحى الأرمنى ويضم ٤٧٨ وحدة سكنية وفيه ٢١٠٠ نسمة.

ومنذ إحتلال القدس سنة ١٩٦٧ وإسرائيل تحاول جاهدة توسيع رقعتها السكنية وملكيتها العقارية فى المدينة القديمة خصوصا على حساب الحى الاسلامى الذى هدمت فيه حى الشرق وحى المغاربة المجاورية للحى اليهودى وشردت سكانها الفلسطينيين، إضافة الى ذلك فهى تحتال لشراء العقارات فى الأحياء الأخرى من خلال سماسرة وشركات حقيقية أو وهمية.

وفيما يتعلق بمنطقة الحرم القدسى ومساحتها ١٤١ دونما أو ١٤٠ الف متر مربع تقريبا، فإسرائيل تسيطر على البوابات وعلى المنطقة المحيطة به، وتلك الواقعة أسفله، وفى المنطقة الأخيرة تجرى منذ سنوات عمليات التنقيب للعثور على أى دليل يثبت وجود الهيكل تحت قبة الصخرة، وإزاء اليأس من ذلك فإن إسرائيل بدأت تتبنى ما توصل اليه عالم الآثار الإسرائيلى طوبيا سعنيف من أن الهيكل ليس تحت قبة الصخرة ولكنه بنى بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة، لذلك بدأت تتحدث عن سيادتها على أسفل الحرم القدسى باعتباره رمزا لجبل الهيكل وهو الاسم الذى تطلقه اسرائيل على منطقة الحرم القدسى والذى إستخدمته وزيرة

الخارجية الأمريكية السابقة فى جلسات التفاوض مع الرئيس ياسر عرفات الأمر الذى إضطر الى تنبيهها بأن إسمه الحقيقى هو المسجد الأقصى.

بلدية القدس كما رسمتها البلدية الإسرائيلية مساحتها ٧٢ كيلو مترا مربعا، وفى العهد الأردنى لم تتجاوز ٦,٥ كيلو مترا مربعا، وقد ضمت إسرائيل الى القدس بعض القرى والضواحى المحيطة بها، وعدد الفلسطينيين فى القدس الشرقية ٢٣٠ ألفا رغم أن الإحصائيات الرسمية تحصرهم فى ١٩١ ألف نسمة، أما المستوطنون الموجودون فى المستعمرات المقامة فى تلك المنطقة فعددهم ١٨٣٨٠٠ مستوطن، وتدعو الخطط الإسرائيلية إلى ضرورة السيطرة على السكان العرب بحيث لا تزيد نسبتهم على ٢٢ ٪ مع تكثيف الوجود الإسرائيلى فيها، ولكن الإحصاءات الأخيرة خيبت ظن الإسرائيليين وبينت أن نسبة الفلسطينيين فى القدس الشرقية وصلت الى ٣٥ ٪، وبسبب تزايد معدلات النمو الفلسطينى إستخرج الأبالسة حيلة جديدة أطلقوا عليها اسم القدس الكبرى.

بمقتضى الحيلة الجديدة شرعت إسرائيل فى ضم المستعمرات المحيطة بمدينة القدس التى تحولت إلى مدن كبيرة الى حدود بلدية القدس، ولأن سكان تلك المستوطنات يبلغ عددهم ٩٠ ألفا تقريبا فمن شأن ضمهم الى المدينة أن يحدثوا إنقلابا فى خريطتها السكانية، إذ فى هذه الحالة ستصبح القدس بشطريها الشرقى والغربى فضلا عن المستوطنات مدينة تتسع لـ ٦٠٠ ألف يهودى وأقلية عربية لا تتجاوز فى أحسن حالاتها ٢٥٠ ألف فلسطينى، وبذلك تحقق إسرائيل من أن اليهود كانوا منذ القرن السادس عشر يشكلون أغلبية القدس.

(د) ما الذى ينتظر من العرب الفلسطينيين حين يرون ذلك يحدث أمامهم ويرون بأعينهم مدينتهم تغتصب يوما بعد يوم، وأن مخطط الإغتصاب واصل إلى الحرم القدسى ذاته، وما هو رد الفعل المتوقع لتبنى الولايات المتحدة الأمريكية للموقف الإسرائيلى، وإستخدام مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية السابقة لاسم جبل الهيكل فى إجتراء مذهل على المسجد الأقصى الذى هو الإسم الأصلى والتاريخى.

إن فقدان الثقة فى كل ما يجرى وفى الوسيط الذى يحاول التوفيق بين الطرفين الفلسطينى والإسرائيلى هو نتيجة طبيعية لا إدعاء فيها ولا إنفعال.

لقد تم توقيع نحو ١٠ إتفاقيات بين إسرائيل والفلسطينيين منذ أوسلو ١٩٩٣، ويفترض أن تلك الإتفاقيات ما هى إلا خطوات متلاحقة على طريق (سلام الشجعان)، ولعل الكثيرين يذكرون تلك التصريحات التى كانت تصدر بعد كل إتفاق مؤكدة أن «قفزة إلى الأمام» وإنتصار دبلوماسى إلخ..، غير أن سجل الإنحياز والإنتصار توقف فى كامب ديفيد الثانية حيث إنتظر كثيرون بقلق ولأنه «أم الإتفاقات» ذلك الذى لا يقتصر على القضايا المؤقتة، إنما يشمل أيضا القضايا المستعصية والصعبة التى أرجئت إلى مفاوضات الوضع النهائى، وهو الذى كان يفترض أن يأتى بجائزة نوبل الى الرئيس بل كلنتون ويضم إيهود باراك الى أنبياء إسرائيل، وينصب من ياسر عرفات صلاح الدين القرن الحادى والعشرين.

فى كامب ديفيد الثانية جاءت لحظة الحقيقة، وحين إستبق باراك وأعلن لاءاته فى شهر يوليو الماضى فإنه لم يصدر صكا بالفشل على المحادثات قبل أن تبدأ بحسب، وإنما أيضا فضح عملية أوسلو ذاتها، ذلك وأنها بدت كستار يراد الإحتماء به لتنفيذ المخطط التوسعى الإستيطانى الإسرائيلى على مهل بعد إجهاض الإنتفاضة وإسكات صوت المقاومة الفلسطينية، ونبين فى النهاية عندما وضعت القضايا على الطاولة، أن ما سيسمح به للفلسطينيين فى مقابل قبولهم باسرائيل على ٧٧ ٪ من أراضيهم السابقة سيكون دولة مجزأة بلا سيادة وبلا حدود بمساحة حدود لا تتجاوز ٦١ ٪ من الـ ٢٣ ٪ من الأرض الباقية «ستبقى ١٤ ٪ تحت سيطرة اسرائيل الأمنية للوقت الراهن وتضم إسرائيل الـ ٢٥ ٪ الباقية التى تشمل المستوطنات الإستراتيجية، أما تنازلات إسرائيل فى القدس فلم تتجاوز وضع أقل من ١٥ ٪ من الـ ٦٤ كم مربع التى إحتلتها إسرائيل فى سنة ١٩٦٧ تحت السيطرة الإدارية الفلسطينية، ومن ثم فغاية ما يمكن أن يحدث هو أن يتمتع الفلسطينيون بالشعور بالسيادة فى مناطق من المدينة، أى أن المطلب هو مجرد إشعارهم بالسيادة فى مناطق من المدينة لأنه يفتقدون الى ذلك وهى السيادة التى يمكن أن تسلب فى أى وقت بقرار إسرائيلى.

(هـ) ان ما يجرى فى القدس هو مجرد إنذار للأطراف التى أغراها الإستغواء فذهبت بعيدا فى العبث بقضايا المصير، وإستهانت كثيرا بردود فعل الشارع الفلسطينى والعربى حتى تطاولت على المقدسات، وأحسب أن العدوان على المسجد الأقصى يمكن أن تتسع دائرته لكى تشعل آفاقا لا تخطر على بال اللاعبين والعابثين، وإذا كان العمق العقيدى له دوره فى

إنتفاضة الجمعة، إلا أن تكرار اللعب والعبث بمصير اللاجئين لن يمر بدوره بسلام خصوصا وأن الأمر يخص كتلة بشرية تضم ما يقرب من خمسة ملايين شخص يتعذر إقتلاعهم وإسقاطهم من الحسبان بالمجان.

لقد أمضينا سبع سنوات ونحن نتحرك بطيئا على تخوم وهوامش القضية، فكم من الوقت سنحتاجه حقا لكى يكون بوسعنا التوصل إلى حل عادل للقضية.